تصريح الدين بكثرة اقمار السماء

اخوض في هذا البحث انهم قضاء لما فات مني حين ألفت كتاب «الهيئة والاسلام» عند ما اوجزت الكلام في كثرة الاقمار وما اوفيت المسئلة حقها

فاقول ما اختلف من المتقدمين فاضلان بل ولا جاهلان في كون القمر جرماً واحداً منفرداً في عالم الوجود دون ان يجوز عاقل منهم وجود قمر آخر غير قمرنا المبصر لانحصار طريق معرفته في الحس او العقل اما الحس فكليل غير صالح لادراك ما تعجز عنهُ الابصار المجردة . واما العقل فلم يكن عندهم مقتضياً لذلك ما لم يحس عينهُ ولم يدرك اثرهُ بل كان مانعاً للمتقدمين من اعتقاد وجود قمر غير مبصر لامتزامه وجود عالم آخر ومكونات اخر نظراً الى تنزه حكمة الباري تعالى عن خلق شيء عبثاً «وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين»

هذا وقد كان منزل العالم عندهم كلياً منحصراً في الوجود بفرده المشهود اعني الكرة الواحدة التي مركزها مركز ارضنا والمحيط محدب الفلك المحدد للجهات . «غاية الامر» ان هذه الكرة الواحدة تنقسم بزعمهم الى ثلاث عشرة كرة متحدة منتظمة تسع منها افلاك عظيمة واربع منها كرات مركزية لاصول الاجسام المعروفة عندهم بالعناصر الاربعة وقد ذكرت ترتيبها وتركيبها في صدر المقدمة السادسة من كتاب «الهيئة والاسلام»(١)

مرّ على فلاسفة الشرق والغرب حين من الدهر لم يتفطنوا فيه بكثرة الاقمار كما تقدم ولكن انقضى امد هذه الغفلة بعد الالف الهجري باكثر من قرن

واول قمر سماوي كشف النقاب عن عذاره هو اكبر اقمار المشتري استكشفهُ غاليله الايطالي المشرقي سنة ١٦٤٢ م . اكتشف هذا القمر بنظارته القريبة سنة ١٦٠١ م ثم تتابعت استكشافاتهم لاقمار بقية الكرات السامية حتى قرُب تعداد اقمار السماء عند الذاهبين باعتراف اساطين فلاسفة الغرب واحدٌ مشهود لارضنا و ٢ للمريخ و ٨ للمشتري و ٩ لزحل و ٨ لارانوس وواحد آخر لنبتون وهي آخر السيارات في نظام شمسنا . وادّعى «كاسني» و«مونتاين» وغيرهما وجود قمر للزهرة فطرهُ سبعمائة فرسخ تقريباً وان بعدهُ عن جرم الزهرة يشابه بعد قمرنا عن ارضنا بالتخمين . وقد خالف هؤلاء سائر القدماء في اعتقادهم ان

(١) هو اول كتاب يشرح الكشفيات المتأخرة وسائر الهيئة الحاضرة والغابرة مستوعباً كل ذلك من ظواهر الكتاب والسنة باللغة العربية الواضحة وتزيد صفحاته على ٤٠٠ غير فواتحه وانكاله النفيسة وقطلب من ادارتنا وثمنهُ عجيدي واحد اعني ٤ فرنكات في انكلترا و ١٥ غرشاً بالاستانة البريد

السياوات اراض كارضنا في المادة والشكل والتحرك والظلمة ففيها الجبال والبحار والهواء والبخار وجوّزوا فيها وجود الاهل والسكان بعد ما استظهروا فيها وجود لوازم العيش والعمران ونتفق ايضاً مع هذا الرأي بناءً عليه حكمة الباري جلّ شأنهُ

« اما الشريعة الاسلامية » فقد سبقت فلاسفة الشرق والغرب في اظهار هذا الرأي الجليل وما كان من هذا القبيل باكثر من الف سنة وذكرت في غير مرة كثرة الاقمار والشموس في سماء هذا العالم المحسوس بالتلويح تارة وبالتصريح اخرى

ولكن ذلك حيث صدر منها قولاً بلا برهان وفتوى من دون دليل وكانت ظواهر الفاظه الحقة مخالفة للعلوم والحقائق الثابتة والمباني المسلمة في تلك القرون اخذ العلماء والحكماء من المسلمين يأوّلون مقالات الشريعة ويظهرون للناس ان المقصود من هذه الظواهر معانٍ خفية غير المعاني الحقيقية . فصرفوا بتأويلاتهم البعيدة وجه الكلام عن مرامهِ ومرماهُ وبدلوا حقائقهُ تبديلاً وشكر الله تعالى اذ اظهر الحقائق ونشر العلوم الصحيحة في عصرنا فامكننا استفادة المعاني الحقيقية من ظواهر مقالات شريعتنا القدسية . فمنها ما رواهُ الشيخ الصفار المتوفى سنة ٢٩٠ في كتاب « بصائر الدرجات » ورواهُ جماعة آخرون ذكرتهم في مبحث تعدد الشموس من كتاب « الهيئة والاسلام » باسانيدهم القوية الى الامام السادس ابي عبد الله جعفر انهُ قال « ان من وراء عين قمركم هذا اربعين قمراً فيها خلق كثير لا يدرون ان الله تعالى خلق آدم ام لم يخلقهُ »

والفاظ الحديث ناطقة الصحّ نطق بكثرة الاقمار الخمسة وراء قمرنا (اي بعدهُ) ولا ينقضي عجبي من علمائنا المتقدمين اذ كانوا يأوّلون هذه الاقمار الى معانٍ وهمية في عالم العقول مع ان الوصي قد اكد كلامهُ بما لا يبقي معهُ التأويل من اشارته الى الجرم المحسوس واضافته الى المخاطبين وتكرير لفظة عين فقال « من وراء عين قمركم هذا الخ » فكيف يسوغ التأويل مع ذلك كلهِ

نعم نعذر القدماء بان ما ذهبوا اليهِ كان مبلغ علمهم في تلك الاعصار فما يصنع من لم يشم نفحة من الآراء الحديثة ولم يجز كثيراً من مباني الفلسفة الجديدة . ولو تركوا شرح هذه الاخبار وفوضوا اظهار اسرارها العظيمة الى اواخر الاعصار لكان ذلك احوط لامرهم واولى . وقولهُ « اربعين قمراً الخ » احتمل في هذا التعداد وجوهاً من القول . بعضها ان لفظة الاربعة والاربعين والسبعة والسبعين والمئة وخمس مئة والالف ونحوها من الاعداد التامة كثيراً ما تأتي بها العرب لبيان الكثرة فقط والمبالغة في التعدد لا لتعيين المعدود وتخصيص

كيفيه فلا ينافي تجاوز عدد الاقمار في الحقيقة عن حد الاربعين ولا تعدادها في حدود الثلاثين نظراً الى استعمال هذا العدد بقصد المبالغة في الكثرة والتعدد فقط دون ان يراد منها التحديد اللفظي

وقد تضمن هذا الحديث الشريف موافقة المتأخرين في مسكونية الاجرام السامية ايضاً ويهدي بصريح لفظه الى وجود كائنات فيه حية ناطقة كالبشر لان الامام نفى العلم والدراية عنهم حيث قال « لا يدرون ان الله تعالى خلق آدم او لم يخلق » ونفى العلم بشيء خاص عن شيء مشعر بان ما نفيت عن قابل لاصل العلم والدراية لكنهُ فقد علماً خاصاً ودراية بامر جزئي فلم يقل الوصي انهم لا يدرون شيئاً حتى يكون نفياً لمطلق العلم . بل قال لا يدرون خلق آدم . فعلم من نفي العلم الخاص عنهم كونهم قابلين لاصل العلم . فثبت كونهم احياء ناطقين ويتردد الامر بين كونهم من نوع البشر او من جنس الملائكة المجردين

وقد اشرت في رسالة « جبل قاف » الى شواهد قوية في هذا الخبر الشريف تفضل كون المراد من هذا الخلق البشر فقط دون الملائكة

ونقل لي بعض الفضلاء المعتمدين رواية عن امير المؤمنين علي انهُ قال « ان في قمركم هذا خلقاً كادوا يحرثون » لكنني لم اظفر بهِ في كتاب كلما تفحصت عنهُ

وفي قولهِ « كادوا يحرثون » (لو صح الحديث مسندهُ) دلالة على انهم بشر يزرعون ويحرثون وعندهم لوازم الزرع والحرث والاكل والعيش وفصول مختلفة و . و .

« لا تستبعدوا مسكونية القمر » وان رجع راصدوهُ اليوم يخفي حنين آيسين من وجود سكان فيهِ حيث لم يجدوا اثراً بشرياً واضحاً على صفحات وجههِ لكن ذهب جملة من اركان الفلسفة العصرية الى جواز مسكونية القمر وهم « هوك » و « هرشل » و « غوك » و « كاسني » و « ارغو » و « كستوك » و « بيكرين » وغيرهم والعلم يؤيدهم ببراهينهِ الجلي فان « هوكاً » قد استكشف الصبح والشفق في كرة القمر وجوّه واخبر بوجود الجبال النارية والبراكين فيهِ وقدّر القطر الاعظم من قوهة احد براكينهِ بنظارة « هرشل » بمقدار كوكب من القدر الرابع بحيث كان من الممكن ان يراهُ الناظر المجرد . وظهر لهُ في كسوف ذات الحلقة سنة ١٨٣٦ م ان ضوء نار ذلك البركان اوضح من شفق القمر

وانت تعلم ان الضوء والشفق والصبح والنار والبركان كلها من لوازم وجود الهواء والبخار في القمر وتهيؤ هذا الجرم لضيافة الحيوان على مائدتهِ

حيث ان الهواء والبخار والحرارة واختلاف الفصل في ارض القمر تستعقب حسب العادة وظواهر الطبيعة حصول وسائل العيش ولوازم الحياة

ومن الاخبار المصرحة بكثرة الاقمار ما نقلهُ عن ستة كتب كلها عتيقة معتبرة ذكرتها « في الهيئة والاسلام » ان جعفر بن محمد سادس ائمة اهل البيت ذكر للعالم اليماني في حديث لهُ نقال في صفة الشمس « انها اذا امرت تقطع اثني عشر شمساً واثني عشر قمراً واثني عشر مشرقاً واثني عشر مغرباً واثني عشر بحراً واثني عشر عالماً الخ »

وظاهر كون هذا الخبر صريحاً في وجود شموس متعددة وعوالم متكثرة واقمار غير هذا القمر ومشارق ومغارب لا تحوم شمسنا حولها ولا تقرب منها حيث لم يأمرها مديرها ومدبرها الحقيقي . فلو امرت حدث فيها مبدأ سير قوي بحيث تسبح وتسير في الفضاء وتقطع حدود تلك الشموس والعوالم وتجوز مدار هاتيك الاقمار والبحار وتمر بتلك المشارق والمغارب

ولا ينافي عدد الاثني عشر ما ورد سابقاً بلفظ الاربعين ان اختلاف اطوار البيان قد يكون بسبب اختلاف احوال السامعين فبعضهم لا يقبل استماع تعدد الشموس اصلاً ومنهم من يحتمل ويقبل استماع تعددها الى الثلثة وبعضهم الى العشرة ونحوها وبعضهم الى الاربعين وبعضهم الى اكثر حسب اختلاف مقادير القلوب كما نرى مثل ذلك في من نخاطبهم فلا ريب في اختلاف احوالهم وعقولهم بالنظر الى استماع الغرائب وطريقة الكاملين من العقلاء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم كما امر به دين الاسلام

السيد هبة الدين الشهرستاني
النجف الاشرف صاحب مجلة العلم

المآخذ الشعرية

(تابع ما قبلهُ)

واهدى ابو تمام قبلاً الى الحسن بن وهب الكاتب وارسل معهُ ابياتاً منها ما ضمنهُ قول القائل : القليل من القليل احمد من الكثير الى الكثير

واستجز قلة الهدية مني ان جهد المقل غير قليل

وعند ابو نواس في الخمرة قول بعضهم : اذا رأيت الهم تمكن في قلبي فقرب الكاس من الباب خرج الهم

اذا ما اتت دون الفتاة من الفتى دعا همهُ من صدرهِ برحيل